(( صورة لصحيفة من المخطوط الأصلي))

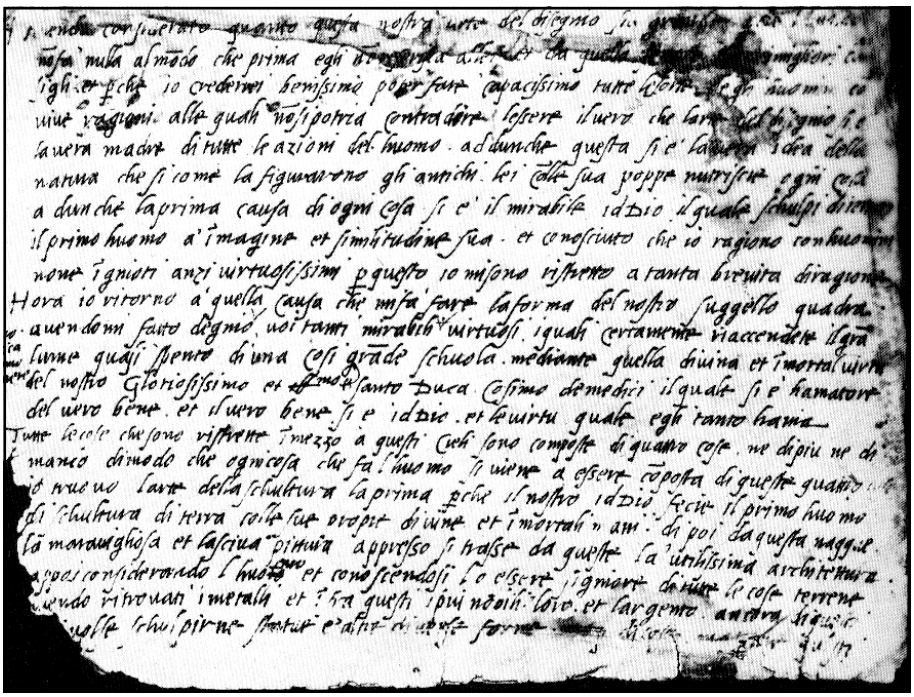

# سيرة حياة بنڤنوتو ابن الأستاذ جيوڤاني چلليني الفلورنسي – دونّها بنفسه في تلك المدينة

مهما اختلفت أحوال أولئك الذين حققوا من المآثر ما يستوجب التقدير أو بالأحرى ممن هو جدير بالتقدير فعلاً، فالواجب يحتّم عليهم إن كان للصدق والصلاح مكانة عندهم – أن يكتبوا سيرة حياتهم بأنفسهم. وبفضلّ أن لايباشروا هذا العمل الطيب إلاّ بعد تجاوزهم سن الأربعين.

وقد خطر ببالي وأنا هاهنا في فلورنسا أن أقوم بهذا بعد بلوغي الثانية والخمسين أو أكثر. وكسائر أبناء آدم، كثيراً ما وجب عليّ أن أكافح الأقدار كفاحاً مريراً. لكنني الآن أقل تعرّضاً للشدائد ومعاكسة الحظ من أي وقت مضى من عُمري. كما أعتقد في الواقع بأني أتمتع بصحة وبكثير من راحة البال أفضل مما كنت افتقده قبلاً. إني لأتذكر أحداثاً طيبة، واستحضر في ذهني أموراً مخفية تجلّ عن الوصف حصلت لي، فارتجف رعباً كلّما استعدت ذكراها وأتساءل كيف بلغتُ الثامنة والخمسين فعلاً وانا ماض في حياتي مُفلحاً آمناً.

ليس ثمّ شك في أن الرجال الذين كدحوا وأظهروا شيئاً من المواهب. قد أثبتوا للدنيا قيمتهم، وبرهنوا على أنهم من الأكفاء، وذوي الشهرة والصيت وربما كان هذا الكسب كافياً لهم. ومع ذلك أراني ملزماً أن أفعل ما يفعله الآخرون، ولذلك اعتزم أن ادوّن قصة حياتي بقدرٍ من الفخر والاعتزاز. وهناك عدة أشكال للفخر والعزّة، إلاّ أن اولّها هو إهتمام المرء بتعريف الناس بالعائلة العريقة الموهوبة التي أنحدرُ منها.

اسمي (بنڤنوتو چلليني) وانا ابن الأستاذ الموسيقار (جيوڤاني) وجديّ هو (اندريه Andrea) وابوه هو (كريستوفانو چلليني Cristofano Cellini) وأميّ هي مادونا (اليزابيتّا Elisabetta) ابنة (ستيفانو گراناچي S. Granacci). وكلاهما مواطن فلورنسي.

نجد الآن بين المؤرخين الفلورنسيين الغابرين، أناساً موثوقين الى آخر حَدّ – ومنهم (جيوڤاني ڤيلاّني G. Villani) يذكرون أنّ مدينة فلورنسا بنيت بلاريب على خُطط وهيئة مدينة روما الجميلة ومازال يشاهد فيها آثار من الحمامّات والكوليسيوم Calesseum[٣] وبالقرب من (سانتا كروچي[٤] Santa Croce). كان يقوم الكاپيتول حيث السوق العتيق اليوم، و(الروتوندا Rotunda) التي بنيت بمثابة هيكل الإله (مارس) مازالت قائمة الى يومنا هذا وهي اليوم كنيسة للقديس يوحنا شفيع المدينة. إن الأبنية التي ذكرتها هي أصغر من مثيلاتها في روما بكثير. إلاّ أن أصل تخطيط مدينتنا واضح جداً ولا سبيل لأحد الى نكرانه.

(٣) الملاعب الرومانية المدّرجة المعروفة. كان يشيدها حكام روما تخليداً لهم في المدن الرومانية لإقامة الألعاب والإحتفالات العامة بما في ذلك المصارعة. والمبارزة والقتال مع الوحوش.

(٤) كنيسة للاباء الفرنشسكان سيرد ذكرها وصفتها فيما يلي من المذكرات.

يقولون أن (يوليوس قيصر Juluis Caesar)[٥] هو المسؤول عن بنائها وأنه إعتزم بمشاركة طائفة من اشراف روما بعد سقوط (فيسولي[٦] Fiesole) بناء مدينة يضطلع كل واحدٍ من هؤلاء الأشراف ببناء واحدٍ من الصروح المشهورة والأبنية العامّة فيها. وكان من بين كبار قادة (يوليوس قيصر) ضابط مقدام يدعى (فيورينو) من أهالي (چلليني) وهي مزرعة تقع على بعد ميلين أو نحوهما من جبل (فياسكوني Fiasconi). إتخذ (فيورينو Fiorino) هذا مقره في موضعٍ يلي (فيسولي) وهو الموضع الذي تقوم عليه فلورنسا اليوم – ليكون قريباً من نهر (آرنو) تيسيراً لحاجة الجيش من الماء. وإتخذ كل الجنود وسائر من له أرتباط بهذا القائد عادة القول "ألا فلنقصد (فيورنزي) عندما يريدون التوجه الى المعسكر لزيارته. كانوا يقولون هذا لأن القائد يدعى (فيورينو)، وكذلك لأن الخصوبة التي تتمتع بها تلك الأرض ساعدت على نموّ الزهر بكثرة وبصورة طبيعية. لذلك بدا الإسم مناسباً جداً للمدينة الجديدة وجميلاً عندما إختاره لها (قيصر) إسم فلورنس (فيورنزي)[٧]. فهو فأل حسنٌ لأنه مشتق من كلمة (الزهرة)، فضلاً عن أنه كان يريد أن يعبّر عن المنزلة الرفيعة التي يحتلها هذا القائد الباسل عنده. وخصوصاً لأنه هو الذيّ رفّع (فيورينو) من جندي بسيط الى مرتبة القائد الكبير واليه يعود الفضل في عظم شأنه[٨].

أما العلماء الباحثون وذوو المعرفة المنقبّون عن أصول الكلمات الذين يقولون إن اسم (فلورنسا) مشتق من fluente ولايعني أكثر من أنها تقع قرب (مجرى) الأرنو، فهم يدّعون المحال وما علينا إلاّ أن ننظر الى روما التي تقع على مجرى نهر التيبر Tiber، أو فيرّارا على مجرى نهر البو أو ليون على مجرى نهر السوّن أو پاريس على مجرى نهر السين لنجد أن كلّ هذه المدن أخذت أسماءها من مصادر

(٥) كايوّس يوليوس (١١٠-٤٤ ق.م) رجل دولة روماني وقائد ومؤرخ حقق لروما انتصارات عديدة ولاسيما في شمال أوروپا وغزا بريطانيا واحتل الجزء الجنوبي منها. واصبح قنصلاً (٦٠ ق.م): وقضى على منافسه الاكبر پومپي في مصر. إلاّ إنه راح ضحية مؤامرة اعضاء مجلس الشيوخ بزعامة پروتوس. حيث طُعن حتى الموت.

(٦) ضاحية لفلورنسا. وهي اقدم منها عهداً. سيأتي ذكرها فيما بعد. إكتشف فيها مرسح يونانيّ الطرز روماني البناء في ١٨٠٩، يعود بناؤه الى عصرالدكتاتور (سوللا) ٨٠ ق.م.

(٧) فيورنزي Fiorenzi هو أسم المدينة باللغة الإيطالية.

(٨) قد لايجد القاريء ضرورة تدفعنا الى القول بأن مزاعم (چلليني) حول أصل نشوء مدينة فلورنسا هي مختصراً مجرد أقوال يتناقلها الناس ولا سند تاريخي لها. وإن قصته التي أوردها عن أصل المدينة ما هي إلاّ مثال من أمثلة المبالغة في المباهاة التي قال عنها هو نفسه بأنها ظاهرة طبيعية عند من يكتبون سير حياتهم. أمّا عن (الكوليسيوم) فأغلب الظن إنه كان قائماً على مقربة من ميدان (بيروزي) الحالي. ولاتختلف المراجع التاريخية القديمة عن مآل هيكل (الروتوندا) الذي قُلبَ الى بيعة عماد القديس يَوحَنا. فقد كان بالأصل مخصصاً للإله (مارس) إله الحرب. بناه الرومان تخليداً لإنتصارهم على (فييسوبي) الاتروسكانية. والمتفق عليه الآن أن القسم الرئيس في البناء الحالي يعود بناؤه الى القرن الرابع الميلادي. وقد صمم على غرار البانتئون. أما الأجزاء الأخرى فتعود الى القرنين ١١ و١٢ هذا الأحتمال لايبتعد عن الأسطورة الخاصة بمنشأ المدينة. راجع كتاب ڤيلاني: I piani due scoli della soria di Firenze ط: فلورنسا (١٨٩٥). وكتاب دافيدسن (تاريخ فلورنسا ط. برلين ١٨٩٦ وكتاب گاردنر (قصة فلورنسا ط ١٩٠٠). (لها تراجم إنگليزية).

مختلفة أخرى لا علاقة لها بالأنهار التي تجاورها.

هذا بالجملة ما وجدته من أسباب ودلائل. ولذلك أعتقد أن أسرتي إنحدرت من صلب هذا الرجل الكبير الشأن نفسه، زد على هذا، هناك من آل چلليني فرع في (راڤنّا Ravenna) المدينة التي تفخر ببعض الأسر الارستقراطية العريقة جداً وهي من أعتق مدن إيطاليا. وهناك من آل (چلليني) في (پيزا). وأنا نفسي عثرتُ على أفراد من آل چلليني في كلّ بقاع المسيحيّة. وفي توسكاني بعض المحاربين الممتازين يحملون اسم چلليني. فمنذ زمن غير بعيد وقع هناك نزاع بين شاب لم يخطّ شاربه يدعى(لوكا چلليني) واضطر هذا الشاب الى قتال عسكريّ جسور مجرّب ولاعب سيفٍ ماهر يدعى (فرانشسكو ڤيكوراتي F. Vicorati) كانت المبارزة الفردية قد جرت عنده مجرى العادة. ومع هذا فقد تصدى له (لوكّا) والسيف في يده وتغلب عليه وجندله قتيلاً مظهراً شجاعةً ومهارة أثارتا إعجاب الناس جميعاً لأنهم كانوا يتوقعون عكس المآل. لذلك فخرتُ بتعقيب سلالتي وأصلي إذ كنت خريج رجال عرفوا بالبأس وشدّة المراس.

أمّا ما ظفرت أنا به للأسرة من مجد طارف في مجال الحياة التي نحياها اليوم وما نلته بفضل منيّ وهو ليس بالكثير، فسأتحدث عنه في موضعه المناسب. ومما يزيدني فخراً أني ولدت لأسرة متواضعة فبنيت مجد البيت الذي أنتمي اليه ولم أنحدر من بيت عريق شريف النسب فلطخت سمعته وألبسته عاراً بإرتكاب الآثام والمعصيات. إذن سأبدء بالحديث عن الظروف التي ولدت فيها بحول الله ورضاه.

كان أسلافي قد أتخذوا (ڤال دامبرا Val d'Ambra) موطناً، هاجروا اليه بسبب الصراع السياسيّ الذي إستعر آنذاك. وكانوا في رغد من العيش يملكون الكثير ويعيشون عيشة صغار النبلاء. وكلهم كانوا يعشقون الجندية وكلهم من الشجعان المغاوير. في حدود تلك الفترة أجج كريستوفانو Cristofano الشاب الأصغر في الأسرة نار فتنة مع بعض جيرانهم وأصدقائهم. فشارك فيها ربّا الأسرتين وتصاعدت ألسنة النار التي أشعلها رهيبةً عنيفةً حتى بدا وكأنها ستأتي على الأسرتين معاً. ولما واجه الطرفان هذا الخطب الجلل تدخل كبار السن من الأسرتين وإتفقوا على حَلّ، إذ قام أسلافي بإبعاد ابنهم ونفت الأسرة الأخرى الشاب الذي كان البادىء بالنزاع الى مدينة (سيينا Siena) وأرسل الفتى (كريستوفانو) الى مدينة (فلورنسا) حيث ابتاعت[٩] له أسرتي منزلاً صغيراً في زقاق (كيارا Chiara) بالقرب من (سانتا اورسولا Orsola) وعقاراً ممتازاً في (پونتي آريفْردي Ponte a Rifredi)، وإقترن بفتاة فلورنسيّة أنجبت له بنيناً وبنات، ضمن لهنّ عيشاً مرفهاً وأمّنهن شرّ الفاقة بعد موته في حين قسمّ الأبناء ماتبقى من التركة. فآل المنزل الواقع في زقاق (كيارا) مع قليل من المال الى أحدهم وهو المدعو (اندريه). وإتخذ اندريه له زوجةً وأنجب ذكوراً أربعة بكرهم (جيرولامو) يليه (بارتولوموّ)[١٠] ثم

(٩) في ركن المنزل المرقم (٦) في زقاق كيارا يرى الزائر هذه العبارة I questa casa nacque Beuvento Cellini il di Primar Novembre del 1500 evie fasso iprimi anni وترجمتها: في هذا المنزل ولد بنڤنوتو چلليني في الأول من تشرين الثاني ١٥٠٠ للميلاد. (وهذا خطأ في التأريخ لأن چلليني ولد في ٢ تشرين الثاني.)

(١٠) هو بارتولوميو باچيو چلليني. كان نقّاشاً بارعاً على الخشب. ومن الغريب أن لايذكره ابن أخيه أو ينوه بشهرته=

والدي (جيوڤاني) ثم (فرانشسكو) وهو الرابع.

(اندريه)[١١] هذا كان مرجعاً في فن الهندسة المعمارية المعاصرة وإتخذ منها حرفةً ومورد رزق، وأولاهما (جيوڤاني) أهتماماً يفوق ما أولاهما اخوته. وإتبع قول (ڤيتروڤيوس)[١٢] الذي نصح من يريد أن يضرب بسهم وافر في هذا الفنّ. أن يُلّم بالموسيقى ويتقن الرسم. فواظب (جيوڤاني) على تلقي فنّ التصوير وغداً رساماً ضليعاً. ثم راح يتدارس فنّ الموسيقى فأتقن مع نظرياته العزف على الكمانجة عزفاً رائعاً واللعب بالزرناي لعباً في غاية الإبداع. وكان رجلاً مجداً فقد لازم المنزل لايبرجه إلاّ لاماما.

وكان له جار يدعى (استفانو گراناچي Stefano Granacei) له عدة بنات جميلات للغاية، وشاءت إرادة الله أن يقع نظر (جيوڤاني) على واحدة منهن وهي الصبيّة المدعوة (اليزابتّا) فوقعت من نفسه موقعاً فخطبها. ولما كان الأبوان على معرفة تامة أحدهما بأحوال الآخر بحكم الجوار. فقد سهّل تحقيق الزواج إذ وجد إنه في صالح الطرفين. وبعد أن تمّ أتفاق الأبوين العجوزين على المصاهرة، أخذا يتداولان في مقدار مهر البنت. فأسفر ذلك عن خلاف ودّي ومناقشة حبيّة فبدأ (اندريه) يقول لإستيفانو:

– ليس من يداني ابني هذا نظير لا في فلورنسا وحدها بل في إيطاليا كلها. ولو اني أردت تزويجه قبل هذا لظفرتُ بأكبر مهر تمهر به عروس في فلورنسا من مستوى طبقتنا.

فأجابه ستيفانو بقوله:

– إنك لعلى حقّ ألف مرة. ولكن ماذا ترى بيدي؟ وها أنا ذا كالحصان مُسرج الى خمس صبايا. والى مثل عددهنّ من الصبيان. لقد حسبتُ حسابي وهذا غاية ما أتمكن من دفعه.

وهنا نهض (جيوڤاني) الذي كان يصغي الى حديثهما دون أن يلحظا وجوده وقال:

– أبت! إني مغرمٌ باليزابتّاً وهي التي اروم الزواج بها لا بالمال. ومن إطّلب الغنى من مهر زوجة ساء حظّه من الدنيا، وما دمت أنت تفاخر بذكائي وقابلياتي فلا أخالك تراني عاجزاً عن إعالة زوجة. وتأمين حاجاتها حتى ولو مهرت بمبلغ أقل مما تريده؟ دعني أوكدّ لك بأن الصبية هي لي وأما المهر فإني لأرغب في أن أتركه لك.

كان يغلب على طبع (اندريه) بعض الحدّة وسرعة الغضب. فأظهر إستياء مما سمع. إلاّ أن (جيوڤاني) جاء بعروسه الى المنزل بعد بضعة أيام. ولم يسأل قطّ عن أي مهر أكثر مما تسلّم. ومَرّ عليهما ثمانية عشر عاماً وهما يستمتعان بحبهما المبارك وشبابهما الغضّ إلاّ أن سعادتهما كانت تشوبها نغصة وحسرة الى الذريّة. فقد أسقطت (اليزابتّا) جنينين إثنين بسبب جهل الأطباء. ثم حملت ووضعت طفلة سمّياها (كوزا Cosa)[١٣] على أسم جَدّتي لأبي. وبعد سنتين حبلت مرة أخرى. ولما كان

=في حين ذكره ڤاساري أكثر من مرّة.

(١١) الظاهر أن (اندريه) كان بناءً لا مهندساً معمارياً. أنظر طبعة باكي، ص ٨، للمذكرات.

(١٢) ماركوس ڤيتروڤيوس پولّيو: مهندس معماري روماني نبغ في القرن الأول قبل الميلاد، وربما كانت ولادته في فورميس (كامباني) وتعزى اليه رسالة في الهندسة. تتضمن أحوال هذا الفن في ذلك العصر.

(١٣) هو مختصر لأسم نيقولوزا Nicolosa.

الوحم الذي أحست به هذه المرّة (وهو ما يلازم الحبالى عادةً) يشابه بالتمام الوحم الذي إنتابها في فترة الحمل السابق. فقد أستقرّ رأي الجميع أن الجنين هو الآخر أنثى وإتفقوا على أن تدعى (ريَپاراتا Reparata) وهو أسم جدّتي لأميّ. وجاء أميّ المخاضُ في الليلة التالية لعيد جميع القديسين في الساعة الرابعة والدقيقة الثلاثين بالضبط[١٤] من العام (١٥٠٠). وما أن أتمّت القابلة غسل الوليد ووضعته في أقمطة من الكتان الأبيض (وكانت على علم بأن الأهل يتوقعون أنثى) حتى إنسلّت بخفّة وأقبلت على الوالدِ وأسرّت في أذنه:

– جئتك بهدية ثمنية ما كنت تتوقعها.

كان أبي فيلسوفاً حقيقياً، فردّ على القابلة وهو يروح ويغدو في الغرفة:

– كل ما يرسله الله لي ثمين.

وبعد أن أزاح القماط والأغطية وتأكد من أن المولود ذكر خلافاً لما كان متوقعاً ضم يديه العجوزتين معاً ورفع نظره الى السماء معها وقال:

– ياربّ إني أحمدك من أعماق قلبي على عطيتك هذه. فهي غالية لاتقوّم. ألا ألفَ "مرحباً به".

وسأله الحاضرون والفرح يغمرهم أن يختار له أسماً فكان لايجيب إلاّ مردداً كلمة.

– مرحباً به Benvenoto!

فقرّ الرأي على أختيار هذا الأسم للوليد. وكان أسمي الذي كنيت به في العماد وهو الذي أعرف به اليوم بنعمة الله.

كان جَديّ (اندريه) حَيّاً عندما بلغت الثالثة أو كدت. وقد أناف هو على المائة. وفي ذات يوم كنا نستبدل برُبخ صهريج القاذورات في دارنا فخرج منه عقربٌ ضخم وراح يسعى على الأرض دون أن يلحظه أحدٌ ثم انزوى تحت التخت. فلمحته وأسرعت إليه وأمسكت به. وكان كبيراً حتى إني عندما أطبقت عليه بقبضي الصغيرة أبقيت ذيله خارجاً من جانب وفكيّه بارزين من الجانب الآخر، وقد روي لي فيما بعد إني أخذت أعدو مسرعاً الى جَدّي والدنيا تكاد لاتسعني فرحاً وصحت:

– أنظر ياجدّاه. أنظر إلى سرطاني الصغير!

ما أن تبين فيه عقرباً حتى إنتابه رعبٌ قتّال كاد يفقده صوابه قلقاً عليّ. فأخذ يحاورني ويداورني بمعسول القول متوسلاً بأن أسلّمه الدويبة. لكني زدت من قبضتي شداً على العقرب وأنا أبكي واردد القول بأني لن أعطيه لأحدٍ. وكان أبي في المنزل فأسرع على صوت بكائي فما رآني ممسكاً بالعقرب حتى طاش عقله وشل الرعب تفكيره وحار في إيجاد وسيلة تمنع الحشرة السامة من لدغة يكون فيها القضاء عليّ، ووقعت عيناه فجأة على مقصّ وإستطاع بالهائي وببعض المراوغة فغافلني وقطع الذيل والفكين، وأعتبرت الحادثة فألاً حسناً بعد زوال الخطر عني.

ومرة أخرى وأنا في الخامسة من عمري، كان أبي معنا في غرفتنا بالطابق الأرضي حيث كانوا

(١٤) كانت الساعات يومذاك تحسب من الغروب الى الغروب ولذلك يتعذر تماماً تعيين الساعة بحسابنا الحالي إلاّ إذا كان الفصل معروفاً لدينا.

يقومون بالغسيل والتنظيف والنار العظيمة من خشب البلوط متقدة، ثبّت (جيوڤاني) كمانجته الى صدره وأنشأ يعزف ويغني لنفسه بالقرب من النار، ثم حانتْ منه إلتفاتة فلمح في وسط اللهب حيواناً صغيراً يشبه سام أبرص يتقلّب ظهراً لبطن وسط الحرارة الشديدة فناداني أنا وشقيقي وهو يتطلع الى النار مشير الينا بالنظر وما أن وجّهتُ نظري الى حيث أشار حتى أهوى على خدي بلطمةٍ شديدة ابكتني بكاءً مرّاً. لكنه شرع رأساً يهديء من روعي بكلمات رقيقة إذ قال:

- صغيري العزيز. إني ما ضربتك لذنبٍ اتيته. بل لأني أردتك أن تتذكر باللطمة أن الحيوان الذي شاهدتَه يتقلب في النار دون أن تؤثر فيه هو (سام ابرص) وهي ظاهرة لم يرها أحدٌ من قبل بدون شك.

ثم إنه قبلني ومنحني قليلاً من المال.

بدأ الوالد يعلمني النفخ بالزرناي ويدربني على غناء بعض المقطوعات والتلاحين. ومع إني كنت في سنّ الطفولة وهي فترة من العمر يولع فيها الصغار أمثالي بالصفارات وأمثالها من اللعب. فقد شعرت بكره خاص لايحدّ لهذه الآلة الموسيقية. ولم أكن أغنيّ أو العب على الزرناي إلاّ إمتثالاً لأمر الوالد ونزولاً عند رغبته. في تلك الأيام صنع الوالد أراغين (ج: أرغن) عجيبة التركيب بأنابيب خشبية، وپيانات قيثارية (ج: پيانو) Harpsichords بأجمل مايمكن أن يجده المرء من صناعة في تلك الأيام فضلاً عن عيدان (ج:عود) وقيثارات وكمانجات بأشرف صنعة وأدقها وأظهر في فنون الهندسة مهارة لاتضارع واخترع آلات غربية لإنزال الجسُور والمعابر وغيرها من المكائن مثلاً: لتشغيل الطواحين. وكان أيضاً أول من إشتغل بنحت العاج.

إلاّ أنه عشق الموسيقى، فأصبحت له زوجة ثانية، ولعلّ زرناه الصغير ذاك الكثير اللعب به، كان السبب الذي دفع عازفي الناي المختصين بالبلاط الى أن يطلبوا منه الإنضمام إليهم فلبىّ طلبهم وصار يعزف معهم على آلته حيناً من الزمن إشباعاً لهوايته. ثم أخذوا يلحّون عليه كي يصير عضواً في جوقهم ففعل. لكن (لورنزودي مدتشي)[١٥] وإبنه (پييرو)[١٦] اللذين كانا شديدي التعلق به، عزلاه عن هذه الوظيفة حين وجداه منصرفاً بكليته الى العزف مهملاً فنّه الرائع ومهنته الخلاّقة. فآلمه ذلك وأمضّه وعَدّ عملهما إساءة كبيرةً بحقّه. إلاّ إنه عاد دون توقف الى عمله الأصليّ. فصنع مرآة من العظم والعاج يبلغ قطرها نحواً من قدمٍ ونصف قدم مزدانة بتهاويل وزخارف نباتية دقيقة التخريم وبإبداع تصميم. كانت على شكل دولاب دائري يحيط بالمرآة يتألف من حلقات سبع صنعت من العاج

(١٥) وهو الملقب بالقانوني أو العظيم (١٤٤٩-١٤٩٢). دعاه الفلورنسيون الى تولي الحكم بعد والده. وقد كان مثقفاً، شاعراً، ساحر الشخصية. إحترم نظام فلورنسا الجمهوري إلاّ ان مؤامرة حيكت ضده بزعامة فرانشسكو سالڤياتي (شُنق هذا بعد أن أُحبطت المؤامرة) أدى الى قيام الپاپا بحرم لورنزو في (١٤٧٩). وهو والد الپاپا ليون العاشر.

(١٦) (١٤٧٢-١٥٠٤) تولى الحكم بعد وفاة أبيه. أبدى عجزاً في الحرب التي شنها شارل الثامن ملك فرنسا (١٤٩٤) فثار ثائر الفلورنسيين عليه وهاجموا قصره ونهبوه ونفوه وأعادوا النظام الجمهوري. توفي غرقاً وتلته فترة أعيد بها النظام الجمهوري لفلورنسا حتى ١٥٢١.

الأبيض والعظم الأسود وحُفرت حفراً دقيقاً بتهاويل. كلّ حلقة تمثل واحدة من (الفضائل السبع) وقد ركبت المرآة وحلقات (الفضائل) بشكل ما أن يدور الدولاب حتى تدور الفضائل معها. ولما كانت هذه الأشكال السابقة مربوطةً بأثقال فإنها لاتتحرك ولاتنقلب الى أسفل مهما دار الدولاب. وكان الوالد يلّم باللاتينية فحفر حول المرآة هذا البيت الشعري: Rota sum: semper, quaquo verto stat sirtus ومعناه: "كيفما دارت عجلة الحظ فالفضائل ستبقى ثابتة منتصبة". وبعد زمن يسير اعيدت الى الوالد وظيفة العازف وضم مجدداً الى جوق نافخي الناي.

بعض هذه الأحداث وقع قبل مجيئي الى هذه الدنيا إلاّ إني أذكرها جيداً عن طريق السماع فلم أشأ إغفالها. في تلك الأيام كان أعضاء هذا الجوق من ذويّ الوجاهة والمهن الرفيعة. بل بعضهم كان أعضاء في الإتحادات النقابية الكبرى لتجار الصوف والحرير[١٧] ولهذا السبب لم يكن إحترافه الموسيقى عيباً فيه أو منقصة له وهذا الذي جعله يرى في إتقاني النفخ بالزرنا اعزّ أمنية عنده في الحياة. ومما كان يورثني أشد الغمّ والضيق هو ترديده القول بأني سأكون أعظم موسيقار في العالم لو بذلتُ جهداً صادقاً في هذا المضمار، إذ كان يتوهم فيّ الكفاءة العظمى.

كما قُلت، كان الوالد من أعظم الناس إخلاصاً لآل مديتشي وأحفظهم للعهد. بدليل أن (پييرو) استودعهُ اموالاً ومقتنيات ثمنية جداً عندما نفي من فلورنسا لاتعُدّ ولاتحصى بكثرتها. وعندما أنتخب بعد ذلك (پييرو سودريني Piero Soderini)[١٨] العظيم، بقي الوالد في وظيفته كموسيقي. وكان (سودريني) على علم بكفاءة الوالد ومواهبه الجمّة، فراح يستخدمه في أعمال هامة عديدة ذات طابع هندسيّ، وظلّ هذا الحاكم الجليل يغمر أبي بالعطف والرعاية بكلّ ماوسعه ذلك طوال مدة حكمه.

في ذلك الزمن وأنا صبيّ صغير أمر الوالد بحملي الى القصر وجعلني أنفخ في الزرناي على طبقة (الصَيّاح) بمرافقة موسيقيي القصر. وكان يحملني طوال العزف واحدٌ من موظفي القصر. وبعد نهاية العزف طاب لـ(كونفالونير Gonfalonier)، أي (سودريني) أن يتحدث إليّ وقد سُرّ بثرثرتي ودفع اليّ ببعض الحلوى وقال للوالد:

– الى جانب الموسيقى، عليك يا (جيوڤاني) أن تعلمه طرفاً من فنونك الرائعة التي تحذقها.

فأجاب الوالد:

– لست أريده أن يتعلم شيئاً آخر غير الموسيقى عزفاً وتأليفاً، فلو مَدّ الله في عمره فإني آمل أن أجعله أعظم موسيقار في العالم.

(١٧) أنشئت الإتحادات النقابية السبعة الكبرى، والإتحادات الأربعة عشر الأصغر منها في أوائل القرن الثالث عشر. ويضمّ الصنف الأول مزاولي مهن الطب والقانون وغيرها فضلاً عن الصناعات الهامة الأخرى. بقيت هذه الإتحادات تقوم بدور رئيس في السياسة والحياة الإجتماعية في فلورنسا.

(١٨) كان سودريني الكونفالونير الوحيد الذي أنتخب رئيساً مدى العمر في العام (١٥٠٢) إلاّ إنه عزل في العام ١٥١٢ بمسعى من الپاپا يوليوس الثاني زعيم (الحلف المقدس) المقام ضد ملك فرنسا (لويس الثاني عشر) الذي أخلصت جمهورية فلورنسا في تحالفها معه.

فتدخل واحد من المستشارين الكبيري السن قائلاً:

- لا يا أستاذ (جيوڤاني) أطع الكونفالونير وأعمل بما يقترح. ما ضرّ الغلام أن يكون ضليعاً في صناعة أخرى الى جانب مهارته في العزف.

ومَرّ الزمن، وعاد آل مديتشي الى الحكم. وما أن استقرّ بهم المقام حتى بدأ الكردينال الذي انتخب پاپا فيما بعد بإسم (ليون)[١٩] يخصّ الوالد بالرعاية ويشمله بالعطف الخاص. والآن، ولما كان آل مديتشي مبعدين رُمجت من شعار القصر[٢٠] وهو شعارهم الخاص الكراتُ المنقوشة عليه ورُسم في محلّها صليب أحمر كبير وهو شعار وعلم الجمهورية (الكوميون Commune)[٢١]. فلما عاد آل مديتشي، مُسح الصليب الأحمر فوراً وأعيد نقش الدرع بكراته الحمراء فوق أرضيّة مذّهبة، بتنظيم في غاية الجمال.

فما كان من الوالد وهو شاعر بالسليقة على نحوٍ ما، كما كان يملك مقدرةً على التنبؤ بالغيب وهي هبة سماوية بلاشك - أن نظم الأبيات التالية وأثبتها تحت الشعار عند إزاحة الستار عنه:

شكة السّلاح هذه قد دفنت
منذ زمن طويل تحت الصليب المقدس الرقيق
وهي الآن تنتظر بفرح ومجدٍ
ظهور عباءة بطرس الرسول[٢٢]

قرأ الأبيات كلّ الفلورنسيين. وما مضت ايّام حتى اعلن نبأ وفاة الپاپا يوليوس الثاني[٢٣] فرحل الكردينال دي مديتشي الى روما. وجاء انتخابه للكرسي الرسولي مفاجأة لم يتوقعها أحدٌ وتسمّى بإسم الپاپا ليون العاشر، تلك الشخصية العظيمة الكريمة وأرسل إليه الوالد رباعيته التي نظمها متنبأ فيها بما حصل فعلاً.

فكتب الپاپا رداً له يقول فيه بأنه يحبّذ ان يأتي الى روما ليصيب حظاً وينال حظوة. ولم يكن الوالد يرغب في ترك فلورنسا، في الواقع إنه بدلاً من مكافأته على إخلاصه، أقدم (جاكوبو سالڤياتي Jacobo Salviati) على إقالته من وظيفته في جوق البلاط الموسيقى يوم نُصِّب

(١٩) جيوفاني دي مديتشي: تبوأ العرش الپاپاوي بإسم ليون العاشر. ولد في فلورنسا ١٤٧٥ وتسنم العرش الپاپوي في ١٥١٣ وتوفي في ١٥٢١. كان من هواة الفن والأدب والعلم وقد قرب أصحابها وشجعهم. عاد الى فلورنسا مع أخيه (گويانو) الذي أصبح دوقاً في العام ١٥١٢ لكنه نزل عن الحكم في عين السنة.

(٢٠) هو الآن قصر ريكاردي (نسبة الى أسم الأسرة التي إبتاعته في ١٦٥٩). أمر ببنائه كوزيمو الأكبر دوق فلورنسا وكلّف ميكيلوزو ميكولوزي به فأنّه في ست عشرة سنة (١٤٤٤-١٤٦٠). وهو آية من هندسة الرنيسانس المعمارية. أصبح ملكاً للدولة في ١٨١٤ وهو الآن مقر حكومي.

(٢١) وهو عبارة عن صليب أحمر على أرضية بيضاء.

(٢٢) بما أن الپاپا خليفة الرسول بطرس أحد تلاميذ المسيح الأثني عشر. فالنبوءة المقصودة هي أن الكردينال جيوڤاني سينتخب عما قريب پاپا أي يرتدي بُردة بطرس.

(٢٣) گويانو دللآريڤري (١٤٤٣-١٥١٣) تسنّم عرش الپاپوية في ١٥٠٣. وللرسام الشهير رافائيل صورة له.

كونڤالونيراً.[٢٤] ذلك هو الذي دفعني الى تعلّم فن الصياغة. وقسمت وقتي بين هذا وبين التمرّن على الموسيقى والنفخ في الناي ضد رغبتي تماماً.

لما زاد إلحاح الوالد على وجوب تفرّغي للموسيقى وإحترافي لها. رجوتُه أن يسمح لي بساعات قليلة من اليوم أقضيها في عمل التصاميم. ووعدته متوخياً رضاه أن أخصص البقية كلها لدراسة الموسيقى. فإذا به يقول:

– إذن فأنت لاتلتذّ بالعزف.

فأجبته بالنفي، وقلت إني أرى الموسيقى فنّاً تافهاً بالقياس الى ما صحّ عزمي على إتخاذه حرفةً.

فلم يجد الوالد الكريم بداً وقد تملكه اليأس – من إرسالي الى دكانّ والدِ ميكالانيولو(الفارس باندنللو Cavalire Bandinello) الذي كان يعرف بإسم (ميكالانيولو Michelagnolo). وهو من (پنزي دي مونَتي Pinzi de Monte) صائغ قدير واقف تمام الوقوف على أسرار الصنعة. إلاّ إنه إنحدر من أسرة وضيعة خاملة جداً وأبوه كان فحّاماً. وهذا ليس بالذي يحطّ من قيمة (باندنللو) الذي بنى حظوظ أسرته. لكن مما يؤسف له أنه لم يبنها على دعائم الشرف والنزاهة. ولاحاجة بي هنا الى الكلام عنه بأي شيء.

بعد أن إختلفت الى دكان (ميكالانيولو) بضعة أيام، أمسكني الوالد عنده لأنه لم يكن يصبر على فراقي أو يحلو له العيش دون أن يراني بإستمرار. فعدت الى ممارسة النفخ بالزرناي مرغماً كارهاً حتى بلغتُ الخامسة عشرة. ولو إني عمدت الى تدوين كلّ مامرّ بي من أحداث حتى بلوغي هذه السنّ وجئت الى وصف الأخطار المميتة التي تعرضت لها، لأدرك القاريء العجب. ولكن لما كان عَليّ التزام الإختصار وتحاشي الكتابة الكثيرة وبما أن عندي الكثير مما اقول فسأهمل التطرق اليها.

عند بلوغي الخامسة عشرة تحديت رغبة الوالد وتتلمذت للصائغ (أنطونيو دي ساندرو Antonio di Sandro) المعروف عند الناس بإسم (ماركوني) وكان حاذقاً ماهراً في الصنعة مستقيماً نزيهاً راجح العقل كريم المعاملة وأبى الوالد أن أتقاضى منه اجراً أسوة بالتلاميذ الآخرين كي ابقى حراً استمر أو أنقطع كما أشاء ذلك لأني إنما إخترت هذه الصنعة إشباعاً لهواية ورغبة في النفس فحسب وليكون بإمكاني معالجة تخطيط التصاميم بحرية وبقدر ما أشاء من الوقت. وكان سروري بهذا التدبير عظيماً.

ورضي أستاذي الممتاز الذي كنت أخدمه بما أحققه من عمل الى درجة كبيرة. حتى إنه كان يكلف إبنه الوحيد غير الشرعي بمهامٍ لاتتعلق بالعمل يقضيها بمكاني ليبقيني قريباً منه. إن رغبتي في تعلم هذا الفن، أو بالأحرى موهبتي الطبيعيّة فيه أو كلاهما في الواقع تعاونا الى الحد الذي وجدت نفسي بعد أشهر قلائل أنافس لا الصائغين الجيدين وحدهم بل خير من وجد منهم من الشبّان. وبدأت أجني ثمار كدّي وإجتهادي. وحرصت على إبهاج الوالد الحبيب الشيخ بالنفخ على الناي أو الزرناي بين

(٢٤) هو زوج ابنة لورنزو دي مديتشي الكبير، رُقّي الى منصب الكونڤالونير في العام ١٥١٤ ولم يبق شاغلاً هذا المركز غير شهرين.

الفينة والفينة. وكنت أستدر الدموع والآهات منه كلما عزفت له وهو جالس يصغي بكلّ جوارحه. ولذلك كنت بدافع من الحبّ البنوي كثيراً ما أدخل المسرّة الى قلبه بهذه الوسيلة، حتى بتظاهري بأني التذّ بها أنا الآخر.

كان لديّ آنذاك شقيق يصغرني بعامين. فتىً عُرف بالأقدام وعلّو الهمّة إنخرط فيما بعد في مدرسة جيوڤاني دي مديتشي المعجزة والد الدوق كوزيمو[٢٥]. وأصبح واحداً من أقدر ضباطه. كان شقيقي آنذاك في الرابعة عشرة وأنا في السادسة عشرة. وفي يوم أحد وقع شجار بينه وبين شاب في العشرين أو نحوها قبل حلول الظلام بساعتين في موضع يقع بين باب (سان گاللو San Gallo) وباب (پنتي Pinti). فتقارع سيفاهما وحمل أخي على غريمه ببسالة وجرأة فأصابه بجرح بليغ وكاد يجهز عليه. وكان بين المتفرجين عدد غير قليل من أقرباء الجريح وأصحابه فلما وجدوا الدائرة تدور على صاحبهم فزعوا الى سلاحهم واستعانوا بالحجارة يقذفونها على أخي فأصيب بواحدة صرعته. وظل مطروحاً فاقد الوعي كأنه ميّت. وإتفق إني كنت ساعتئذ واقفاً بين المتجمهرين أعزل وحيداً لا صديق بقربي يشدّ أزري. وكنت أحث أخي قبل إصابته على الفرار بعد أن نال بغيته من الخصم. فلما رأيته بمحض الصدفة يسقط مجندلاً التقطت سيفه ووضعت جسمي بينه وبين السيوف المسددة إليه وحلت بينه وبين السيل المقذوف من الحجارة ولم أبرح حتى أقبلت ثلة من المقاتلين الأشداء من جهة باب (سان گاللو) وأنقذتني من هياج الغوغاء. وكان إعجاب هؤلاء بالشجاعة التي أظهرها حدث صغير لا حدّ له. فحملت أخي المغشي عليه الى المنزل وكل إعتقادي إنه ميت. وبعد أن إحتوانا المنزل بذلنا جهداً كبيراً حتى أفاق.

بعد أن عوفي حكم علينا مجلس الثمانية[٢٦] بالنفي لمدة ستّة اشهر محرّماً علينا الإقتراب من المدينة بمسافة عشرة أميال. وقد سبق له أن حكم على خصومنا بالنفي عدة سنين. قلت لأخي:

– إذن فلنرحل معاً.

وفارقنا والدنا المسكين بعد أن زوّدنا ببركته عوضاً عن المال إذ لم يكن يملك منه شيئاً. وكانت وجهتي (سيينا) لأبحث عن رجل في غاية اللطف أعرفه وأسمه (الأستاذ فرانشسكو كاستورو Maestro Francesco Castoro) كنت معه مَرّة عندما هربت من والدي. فبقيت بصحبته عدة أيام نشتغل في الصياغة حتى بعث الوالد بطلبي. وعرفني (فرانشسكو) حالما حططت رحلي وأعطاني عملاً، فضلاً عن أيوائي طوال إقامتي في (سيينا). فإنتقلنا إليه أنا وأخي. وتفرغت لعملي عدة أشهر. كان أخي يعرف قليلاً من اللاتينية إلاّ أنه كان أصغر سِنّا من أن ينمي قابلية تذوق الدرس والتحصيل فكان

(٢٥) هو جيوڤاني دللاّباندي أشهر من أن يُعرّف. انحدر من الفرع الأدنى لاسرة دي مديتشي وكان شقيق (كوزيمو) الملّقب (بأبي الوطن Pater Patria) وأمه كاترينا سفورزا. من شهيرات نساء زمانها. وإبنه (كوزيمو) الذي صار أول دوق أكبر لفلورنسا. مات قتيلاً في ١٥٢٦ في كوڤرنو ولم يتعد الثامنة والعشرين في معركة مع جيوش الإمبراطور – بعد عمرٍ حافلٍ. وقد كتب چلليني مرثية في ذكراه (أنظر بلليني ريمي، ص ٢١٥).

(٢٦) الثمانية (qli Otto) هو مجلس قضاة مسؤول عن الأمن وتطبيق القانون داخل مدينة فلورنسا.

ينفق أيامّه متلهّياً متسكعاً.

الأمر الثاني الذي وقع هو أن الوالد توسط في قضيتنا عند الكردينال دي مديتشي (الپاپا كليمنت فيما بعد)[٢٧] فعدنا الى فلورنسا. إلاّ أنّ أحد تلاميذ أبي بدافع من سوء خلقٍ فيه زيّن للكردنيال بأن يبعث بي الى (بولونيا) للتتلمذ على أستاذ من جهابذة فن الموسيقى يدعى (أنطونيو) لأتقن العزف على خير وجه. والحق يقال كان هذا الرجل موسيقاراً عظيماً. وأبلغ الكردينال والدي بأنه في حالة إرسالي الى (پولونيا) فسيزوّدني برسائل توصية مفيدة. فكاد الفرح يقضي على والدي وزال كل تردده في إرسالي. وكنت أنا نفسي راغباً أيضاً بدافع الشوق الى رؤية المزيد من الأماكن في الدنيا.

وفي (بولونيا) وجدت عملاً عند رجل يدعى الأستاذ (أركولي دل پيفّيرو Arcole del Peffero). فربحت شيئاً من المال. كما كنت أواظب يومياً على دروس الموسيقى فحققت تقدماً جيداً في هذا الفن اللعين. إلاّ إني جنيت فائدة أكثر بكثير بإحترافي الصياغة. فمهرتُ فيها ووقفت على إسرارها.

ولمّا لم يزوّدني الكردينال بأية مساعدة مالية فقد سكنت مع مُنَمنمٍ[٢٨] بولوني يدعى (سكيپيوني كاڤاليتي Scipione Cavalletti). ويقع منزله في شارع (سيدتنا العذراء شفيعة باراكان Baracan). وهناك بدأت أعمل تصاميم فنيّة. وأشتغل لحساب يهودي يدعى (گرازيا ديوُ Grazia Dio) بكسبٍ ومال وفير.

بعد نهاية الأشهر الستة عدت الى فلورنسا. ولم يرتح لعودتي تلميذ الوالد المدعو (پييرينو) عازف الناي. وحباً في أرضاء أبي صرت أختلف الى داره لممارسة النفخ بالناي أو الزرناي مع أخيه (جيرولامو Girolamo) الأصغر منه ببضع سنين. وكان يختلف تمام الإختلاف عن (پييرو) فهو شاب مستقيم محبوب.

وفي يومٍ ما قصد الوالد منزل (پييرو) ليسمعنا ونحن نؤدي دوراً. وبلغ من فرط إعجابه بأدائي أن هتف قائلاً:

- لأجعلنّ منك عازفاً يشار إليه بالبنان وسأتحدىّ كل من يحول بيني وبين عزمي.

فردّ (پييرو) بقولةٍ أصاب فيها كبد الحقيقة إذ قال:

- إن عزيزك (بنڤنوتو) سيثري وينال شهرةً وشرفاً لو درس فن الصياغة بدأب أكثر من معاناته شغلة التزمير السخيفة هذه.

فإستشاط الوالد غيظاً ولاسيما حين وجدني أشاطره الرأي، وقال وقد بلغ به الإنفعال أقصاه:

- كنتُ دائماً على علمٍ بأنك تعمل على إحباط مسعاي العظيم. وإنك أنت الذي سعيت في اعفائي من وظيفتي في القصر. لقد كافأتني بشر الجزاء وهو النوع من نكران الجميل الذي تُقابل به عادةً

(٢٧) كليمنت السابع (١٤٧٨-١٥٣٤) صار فيما بعد من أعظم نُصراء چلليني. وهو گويليو الإبن غير الشرعي لگويليانو شقيق لورنزو الثاني الكبير. انتخب پاپا في ١٥٢٣. رفض هذا الپاپا رجاء الملك هنري الثامن الإنگليزي السماح له بطلاق زوجته. فكان ذلك سبب إنفصال كنيسة انگلترا عن المذهب الكاثوليكي.

(٢٨) النمنمة هي شغل التطريز على القماش بإسلاك الذهب والفضة.

الأفضال الكبيرة. عَينّتك في وظيفتك فأفقدتني وظيفتي[٢٩] علمتك كلّ ماتعرفه من الموسيقى فحلت دون قيام أبني بتحقيق رغبتي فيه. والآن تذكّر هذه الكلمات القليلة من النبوءة: لن تمرّ أسابيع قليلة، ولا أقول أعوام أو أشهر إلا وستكبو بك حظوظك كبوةً لا قيام لك من بعدها بسبب نكران الجميل هذا الذي قابلتني به.

أجاب الأستاذ پييرينو:

- معظم الناس يا أستاذ جيوڤاني يزدادون خَرَفاً كلماً تقدّم بهم العمر. وأنا لا أستغرب منك هذه الأقوال فأنت مخرف، ولاعجب إذ أراك تبددّ كل ما لديك في هذه الدنيا دون أن تفكر بحاجة أولادك. أمّا أنا فقد نويتُ عكس ذلك. وصممت على أن أخلّف لأولادي ما يجعلهم قادرين على مدّ يد العون لأولادك.

فكان جواب الوالد على هذا قوله:

- ألا فاعلم أن فاسد الشجر لايحمل طيب الثمر، والعكس هو الصحيح. وأضيف الى هذا قولي: إنك إنسان نذل وإن أبناءك سيخرفون ويصابون بالعته والفقر وسيأتي يوم يقصدون فيه أولادي الأذكياء الأغنياء ليتصدقوا عليهم.

وإستمرا يتبادلان جارح القول وكاد أحدهما يمسك بخناق الآخر ثم ترك الوالد منزل (پييرينو) وخرجت معه وقد لزمت جانبه قائلاً. إني سأنتقم منه ولن أدع الإهانة التي الحقها به هذا الوغد تضيع هباءً، لو تركني أواصل تماريني في التصاميم والرسم. فأجابني قائلاً:

- بورك فيك يا ولدي العزيز. وأنا أيضاً كنت رساماً مجيداً. لكن أرجوك بعهدٍ تقطعه على نفسك أن تواصل التمرين في الزرناي بين آن وآخر بعد إنتهائك من عملك. ففي ذلك تسرية عن نفسك لأن صنعتك شاقة مرهقة أولاً وحبّاً بي أنا والدك الذي جاء بك الى هذه الدنيا وربّاك ولقّنك أصول هذه الفنون وزرع فيك بذور هذه المواهب الرائعة، أفلا تعدني بأن تمسك زرناك أو تلك الناي البديعة فتسلّي نفسك بأنغامهما أحياناً؟

فأجبته: "أجل فإمتثالاً لرغبته سيسرّني جداً أن أقوم بذلك". وعندها قال لي هذا الوالد الشيخ الصالح إن إنتقامه الأكبر من إهانات أعدائه هو في إشتهار أمري ونبوغي في فن الموسيقى.

مامَرّ شهر على هذه الحادثة إلاّ وتحققت نبوءة أبي. فقد شرع (پييرو) المذكور في بناء قبو بمنزله الواقع في زقاق (دللو ستوديو Dello Studio) وفيما كان يقف مع عدد من أصحابه في الغرفة التي تعلو القبو وهو يغتاب أبي أستاذه السابق مردداً العبارات التي تفوه الوالد بها عن خرابه المتوقع، في تلك اللحظة بالذات مادت به الأرض وإنخسفت تحت قدميه ربما بسبب خطأ في بناء القبو أو بقدرة القادر على كلّ شيء الذي لم ينتظر نهاية الأسبوع ليعطي ماهو مستحق، فهوى من حالق وإنهالت

(٢٩) باچي (المرجع السالف: ص١٢) يثبت نصاً من وثيقة في سجلات فلورنسا الرسمية، تعطي سبباً أو صورة أخرى غير التي جاءت في المتن. فقد ذكرت أن جيوڤاني مُنح راتباً تقاعدياً وسُرّح نظراً لطول خدمته Senex et inhabilis del sonodum.

فوقهُ الحجارة والآجرّات فكُسرت ساقاه في حين لم يصب أحد من الواقفين على الحافة باذى وتسمرّوا في مواضعهم ذاهلين مشدوهين بسبب ماكان يحدثهم به ساخراً متهكماً قبل لحظة.

ما أن سمع الوالد بالنبأ حتى شدّ سيفه الى وسطه وذهب لعيادته وقال له بمحضر من أبيه (نيقولايو دي ڤولتيراّ Nicolaio die Volterra) بوقيّ البلاط:

- تلميذي العزيز پييرينو! إني لا أدري كيف أعبّر عن حزني وأسفي لما أصابك. لكن لو تذكرت قولي وما أنذرتك به عن سوء العقبى قبل زمن ليس ببعيد. لو تذكرت ما تنبأت به آنذاك عن مستقبل أبنائي وأبنائك فإن علاقتهما أيضاً ستكون كما توقعت.

بعد فترة وجيزة قضى (پييرو) ناكر الجميل هذا نحبه بسبب السقطة. وخلّف زوجة سيئة السمعة. وولداً واحداً. هذا الولد قصدني بعد مرور سنين يطلب مني عوناً مالياً وأنا في روما فنفحته بشيء لأن التصدق على الفقر جانب من طبعي، كذلك تذكرت وعيناي مغرورقتان بالدموع النعيم الذي كان يرفل فيه ابوه عندما نطق الوالد بنبوءته وهي أن أبناءه سيقصدوننا مستجدين طالبين إحساناً.

والآن بعد أن أوفيت هذه الحادثة حقّها من التفصيل بقي على أن أوصى بألاّ يستهين أحد بنبوءة إنسان طاهر الذيل يُساء إليه بغير حق. إذ ليس لسانه هو الناطق بل الله هو المتكلم الموحي.

تفرغت الى فن الصياغة وأخلصتُ له. وصرت بفضله قادراً على إعانة أبي مالياً. قلتُ أن شقيقي الأصغر (چكينو[٣٠] Cechino) كان على بعض الإلمام باللاتينية. وقد رسم والدي أن أكون موسيقاراً نظرياً ومحترفاً شهيراً. وأن يغدو ابنه الأصغر قانونياً ضليعاً. إلاّ إنه لم يفلح في صدّنا عن السبل التي سلكتها ميولنا الطبيعية، تلك الميول التي شدّتني الى فن الزخرف على المعادن ودفعت بأخي المتين الألواح المتناسق الجسم الى إحتراف الجندية. وفي يوم من الأيام جاء الى المنزل - وكان بعد صبيّاً يافعاً- بعد أن تلقىّ أول تدريب عسكري في المدرسة الحربيّة التي أنشأها السيد العظيم (جيوڤاني دي مديتشي) ولم أكن في الدار آنذاك. كانت ثيابه غير لائقة فشكا أمره الى شقيقاتنا فقمن الى ثيابي من دون علم أبي ودفعن إليه بمعطفٍ وسترة وهما من خير ما أملك (كان في مقدوري إقتناء هذه الثياب الغالية بفضل مكاسبي من عملي الذي جعلني قادراً على مساعدة الوالد والأخوات الكريمات الصالحات). ولما إكتشفت فقدان ثيابي بهذه الطريقة غير الأمينة وتعذر عَليّ إيجاد شقيقي لإستعادتها منه. شكوت الأمر للوالد متسائلاً كيف يسمح أن يُساء اليّ، وها إنه يرى بعينيه كيف أكدح وأرهق نفسي لمساعدته بكلّ طيب خاطر. فأجابني: إني بمثابة الإبن الصالح. وأن أخي هو الإبن الضّال الذي فقده ثم عاد إليه بعد أن يئس من عودته[٣١] وزاد قائلاً إن ما أوصى به الله هو أن على من يملك الكثير أن يعطي الذي لا يملك شيئاً. ورجاني أن أتحمل هذا التصرف المشين إكراماً له وأن الله لاشك سيزيد من حلالي ويبارك فيه.

وكأي شاب غرير قليل التجربة كان جوابي للوالد المسكين المحزون - مشوباً بالحدّة والعناد- حزمت

(٣٠) تصغير اسم فرانشسكو.

(٣١) وَرَدَ مثلُ "الإبن الضال" في أنجيل لوقا (فصل ١٥).

ثيابي القليلة القديمة وبالنزر اليسير المتبقى لديّ من المال توجهت الى واحدٍ من أبواب المدينة. ولما كنت أجهل أيا منها يفضي الى طريق روما فقد سلكت السبيل المؤدية الى (لوكا)، وإستأنفت السفر من (لوكا) الى (پيزا).

كنت في السادسة عشرة من عمري عندما وطئت قدمي (پيزا). توقفت بالقرب من الجسر الوسطاني حيث تقوم دكة السمك الحجرية(*) ودنوت من دكان صائغ مجاورة وبدأت أرقب بإهتمام صاحبها وهو ماضٍ في عمله. فحانت منه التفاتة اليّ والقى بعمله وخرج ودنا مني يسألني عن هويّتي وحرفتي. فأجبته أن لي بعض الإلمام بصناعته فدعاني الرجل الكريم الى دكانه ودفع اليّ بعمل فوراً وهو يقول:

– إني اتوسم في وجهك الموحي بالأمانة ما يؤيد لي بأنك فتى مستقيم حسن الخلق.

ثم أناط بي أعمالاً لحليّ من الذهب والفضة والأحجار الكريمة، وبعد إنقضاء اليوم أخذني إلى بيته وكان في خفضٍ من العيش؛ يحيا حياة ناعمة مع زوجته الجميلة وأولاده. فكرت في مبلغ قلق الوالد وألمه لفراقي فبادرت الكتابة إليه. وذكرت له إني أقيم في منزل رجل كريم عالي الخلق يدعى (اوليڤيري ديللاّ كيوسترا Uliviere della Chiostra) وإني مستخدم عنده وقد كلفت بأعمال دقيقة وهامة جداً. ورجوته ألاّ يستسلم الى القلق إذ إني أروم الإستزادة في موضوعات فنيّ فإذا تمكنّتُ منه ومهرت فيه خلال زمن قصير فإني سأظفر بما يعود عليه بالفائدة ويخلع عليه شرفاً.

أسرع الوالد العزيز بكتابة الرسالة التالية جواباً:

"ولدي. إن الحبّ الذي أكنّه لك يحفزني على القدوم إليك لولا ما يمنعه شرفنا الذي أضعه فوق كل إعتبار. في الواقع وبدون مبالغة ان عدم رؤيتك يومياً كما اعتدتُ؛ صيرّني مثل ذلك الذي فقد نور عينيه. إن لقياك هي أمينتي الكبرى. على إني سأبقى ماضياً في إدارة شؤون الأسرة وقيادتها في طريق الصلاح وعليك في الوقت نفسه أن تضاعف جهودك للوصول الى حَدّ الكمال بفنّك. ووصيتي لك أن تبقى حافظاً هذه الكلمات القليلة البسيطة ولتكن دليلاً يهديك الى الطريق السوية دوماً:

في أي دار حللتا  كن أميناً مستقيماً.

وقعت رسالة أبي هذه بيد أستاذي (أوليڤيري) فقرأها دون علم مني واعترف لي بذلك فيما بعد قائلاً:

– الحقّ يا بنڤنوتو إني لم أكن مخدوعاً بوجهك السمح. وقد أثبتت ذلك رسالة أبيك التي وقعت بيدي صدفةً ومنها يظهر كم هو رجل صالح مستقيم. ولك أن تعتبر نفسك من الآن فصاعداً وكأنك في بيتك تعيش مع أبيك.

كنت أديم التردد الى (كامپوسانتو Campo Santo) طوال إقامتي في (پيزا) إذ إكتشفت هناك عدداً كبيراً من التحف الأثرية الجميلة وأعني التوابيت الرخامية. كما وقفت في (پيزا) نفسها على آثار قديمة كثيرة في أماكن أخرى وكنت أتدارسها بدقة وتمحيص منفقاً كل ما توفر لي من أوقات الفراغ

(*) دكة السمك الحجرية كانت تستخدم بمثابة سوق السمك وهي على رصيف الضفة الحجري.

بعد ساعات العمل في تأملها وتحرّي وجوه الفنّ فيها. وزاد من تعلق أستاذي بي عندما كان يزورني في الغرفة الصغيرة التي خصّصها لي فيجدني مكبّاً على العمل وصار يحبني حبّ الوالد لإبنه. وكانت السّنة الواحدة التي قضيتُها معه مثمرة للغاية. وصُغت عدداً من الحلي الذهبيّة والفضيّة الجميلة الهامة. وقد أثار فيّ هذا الرغبة في المواصلة والمثابرة. وأبي في أثناء ذلك يمطرني برسائله متوسلاً ضارعاً لأعود إليه مذكرّاً إياي أبداً بممارسة الموسيقى التي بذل قصارى جهده في تعليمي إياها فما أقرأ هذا حتى تزايلني كل رغبة في العودة. الى هذا الحَدّ بلغ كرهي لمعالجة الموسيقى بهذا الزرناي اللعين. والواقع إني كنت في فردوسٍ طوال إقامتي في (پيزا) حيث لم تمسك يدي قط بزرناي.

بإنتهاء العام سنحت لأستاذي فرصة للسفر الى فلورنسا لبيع مقدار من برادة الفضة والذهب تخلّفتْ له من العمل. وكان هواء (پيزا) غير الصحيّ قد أسلمني الى مسّ من الحمى فعدت الى فلورنسا معه وبي من آثارها. ورحب الوالد به ترحيباً حاراً وصار يلّح عليه في غفلةٍ مني بألاّ يأخذني بل يبقيني. فنزل عند رجائه وتركني ولازمت الفراش مقدار شهرين وأبي ساهر على علاجي بحنانٍ وحدب يجلاّن عن الوصف، وكان لايَني يردد قوله إن فترة مرضي هي عنده بمثابة ألف سنة وإنه ليتطلع الى اليوم الذي سأكون فيه قادراً على تطريبه بألحاني. وكان على معرفة بالطب والكتب اللاتينية. فيجّس وهو ممسك برسغي التسارع الفجائي في ضربات قلبي كلما طرق موضوع الموسيقى! فيدرك ردّة الفعل وينأى عني وجلاً باكياً. لم تفتني ملاحظة تلك الكآبة، فطلبت من أحدى شقيقاتي إحضار الزرناي لأنها أقل الملاهي إجهاداً للعازف، والحمى لم تزايلني - ورحت أنفخ بحركات بارعة من الشفتين والأصابع، فأسرع الوالد اليّ وأخذ يمطرني بوابل من دعائه وبركاته. وقال إني تقدمت كثيراً خلال الفترة التي قضيتها بعيداً عن فلورنسا، ورجاني الإستمرار في التمرّن وإستحلفني بالاّ أُهمل هذه المَلَكة العظيمة فتضيع منيّ هدراً.

بعد أن استرددت صحتي، عدت الى صديقي الشهم الكريم (ماركوني) الصائغ فساعدني على كسب بعض المال وبذلك أمكنني مساعدة الوالد والأسرة. وفي تلك الفترة من الزمن قدم الى فلورنسا نحّات يدعي (پييرو تورّيجياني[٣٢] P. Torrigiane) كان قد عاد من انگلترا بعد زيارة إمتدت سنوات غير قليلة. وبما إنه صديق حميم لأستاذي فقد كان يزُوره يومياً. وبعد أن القى نظرة على رسومي وتصاميمي قال:

- إن السبب في مجيئي الى فلورنسا هو لإستخدام ما أمكن من الصناع الحاذقين لأن هناك عملاً هاماً جداً كلفني به ملكي (يقصد هنري السابع). وطريقتك في العمل ووضع التصاميم أقرب الى

(٣٢) إشتهر بأنه مهشّم أنف ميكالنجلو الشهير، وهو نحات فلورنسي معروف. ذاع أمره في إنگلترا بسبب النَصَب التذكاري الذي صنعه لهنري السابع في كاتدرائية (ويستمنسر آبي). غادر انگلترا الى إسپانيا، وأحس هناك بإنه لايلقى المعاملة التي تليق به فما كان منه والعهدة على الراوي إلاّ وأضرب عن تناول الطعام حتى مات جوعاً. والوصف الذي قدمه چلليني له يطابق وصف (ڤاساري) ج: ٦.

النحت منها الى الصياغة. وأنا أرغب في إسداء العون لأبناء جلدتي الفلورنسين فإن عاونتني في صبّ تمثالٍ برونزي ضخم كُلِّفتُ به هناك فسأجعل منك نحاتاً باقعة، وسأغنيك.

كان (توريجياني) هذا رجلاً متين البنيان متناسق الأعضاء في غاية الوسامة؛ يحسبه المرء من جبابرة المحاربين لا من النحّاتين، أضف الى هذه الهيئة حركاته الآمرة وصوته القوي الرنان تقطيبته التي كانت توقع الرعب في أشجع القلوب. وكان يتحفنا كلّ يوم بحكاية عن مآثر إقدامه ومغامراته بين أولئك الإنكليز الوحوش. ومَرّة بدءَ يتحدث عن (ميكالنجلو بوناروتي) بعد أن وقعت انظاره على رسم من رسومي كنت قد إستنسختها[٣٣] من صورة حائطية لذلك الفنان الخالد. وهي أول أثر فنيّ تجلت فيه عبقريته السماويّة. رسمها منافساً بها فنّاناً آخر يدعى (ليوناردو داڤنشي[٣٤] Leonardo da Vinci) وقد رسمت لقاعة المستشارية بقصر السنيوري والموضوع هو فتح جيوش فلورنسا مدينة (پيزا). إختار (ليوناردو داڤنشي) المُعجز أن يصور هجوم الفرسان وإستيلاءَهم على الرايات والبيارق. فأتى بالعجب العجاب الذي يقف عن وصفه القلم. أما ميكالنجلو فقد صور سريةً من المشاة أفرادها يستحمون في نهر الأرنو والوقت صيف والمنظر يمثل حالة إستنفار وإنذار فترى الجنود العراة يهرعون الى سلاحهم ثم الى المعركة. وقد رسمت الفكرة بدقة وإبداع فاقت بالإعجاز كل ما رسمه القدماء والمحدثون. وكما قلت كانت لوحة ليوناردو بالغة الروعة أيضاً. واحدة من هذه اللوحات في قصر مديتشي، والأخرى في قاعة الپاپا. وقد صارتا وقبل أن يعتورهما التلف مثل مدرسة تقصدان من جميع الأرجاء.

ومع أن ميكالنجلو الموهوب رسم بعدها صور البيعة الكبرى للپاپا يوليوس[٣٥] إلاّ أنه لم يبلغ بها نصف الكمال الذي بلغه في هذه الصورة. ولم تفصح عبقريته مرة أخرى عن نفسها بمثل هذه القوة في أولى دراسته تلك.

ولأعد الى (پييرو توريجياني)، فقد قال وهو ممسك بصورتي:

– إعتدنا أنا وبوناروتي وكنا صبياناً أن نذهب لدراسة الرسم في جناح (ماساچيو Masaccio)[٣٦] بكاتدرائية (كارميني Carmine)[٣٧] وكان من طبع بوناروتي أن يتخذ من أي أحد يرسم هناك مادةً

(٣٣) لم ينثنِ چلليني عن ولائه لميكالنجلو ولم يتحول عن أعجابه به. والصورة الحائطية المشار إليها أتمها بين عامي ١٥٠٤ و ١٥٠٥ لقاعة المستشارين في قصر ڤيكيو. والآن يكاد لايبين لها أثر. وقد جرت محاولة أخيراً لإستنقاد صورة ليوناردو المنوه بها دون جدوى فقد تلفت هى الأخرى. مثّل ميكالنجلو في الصورة جانباً من معركة كاچينا في الحرب مع پيزا. أما ليوناردو فقد صور مشهداً من موقعة أنگياري Anghiari.

(٣٤) داڤنشي (١٤٥٢-١٥١٩) نحات ورسام ومهندس ومعمار وفيلسوف. وواحد من العبقريات المعدودة في كل زمان ومكان غنيّ عن التعريف. وهو صاحب لوحة الجيوكندا المشهورة.

(٣٥) هي الكاتدارئية الشهيرة بإسم سيستين Sistini. في روما.

(٣٦) توماسوّ دي سرجيوڤاني (١٤٠١-١٤٢٩) هو أوّل من أوجد الأسلوب الإمتلائي القوي في رسم الإنسان. والرسم الوحيد الذي وصلنا له هو لوحته الجصيّة في الكنيسة المشار إليها، وأبرز مافيها صورة آدم وحواء بعد الخطيئة.

(٣٧) هذا الجناح من الكنيسة يخصّ آل برانكاچيّ في فلورنسا وقد تولى ماساچيو المذكور زخرفتها برسوم تمثل جوانب=

للسخرية والمناكدة. وفي ذات يوم خصني بمناكدته واستفزّني حتى إني فقدت السيطرة على نفسي بشكل غير مسبوق مني فجمعت قبضتي وسددت لكمة الى انفه بلغت من الشدة بحيثُ شعرتُ وكأن العظم والغضروف يسحقان تحت قبضتي مثل قطعة بقسماط هشّة وسيبقى هكذا يحمل (توقيعي) حتى مماته.

ملأتني هذه القصّة إشمئزازاً أنا الذي اعتدت مشاهدة روائع ميكالنجالو العبقري كل يوم، وزرعت كراهة (توريجياني) في نفسي بحيث ما عدت أطيق النظر إليه فكيف بالذهاب معه الى إنگلترا؟ كنت أحاول طول إقامتي في فلورنسا تشرّب أسلوب (ميكالنجلو) وإحتذاءه ولم أنثنِ عن ذلك أبداً.

في تلك الأيام نمت صداقة وثيقة جداً بيني وبين شاب صائغ عالي الأخلاق ساحرها في مثل سنيّ يدعي (فرانشسكو ابن فيليپّو). ووالده هو الرسام البارع فرا فيليپّو[٣٨] ولم نكن نفترق إلاّ لماماً للمودة العظيمة التي يكنّها أحدنا للآخر. كذلك كان منزله غاصّاً بالدراسات الرائعة التي كان والده قد رسمها وثَمّ أيضاً عدة دفاتر منها بريشته نقلها عن آثار روما القديمة. فعلقتُ بها بل جننت جنوناً. هذه الصداقة إستمرت سنتين تقريباً.

في تلك الفترة من حياتي أتممت صياغة حلية فضيّة ذات زخرف بنصف بروز لايُزيد حجمها عن كَفّ طفل. وهي ابزيم لحزام رجل. وكان الشائع أن تتخذ بهذا الحجم. نقشت عليها مجموعة من أوراق النبت المعروفة مع رؤوس ملائكة صغار (كروبيم) وغير ذلك من التهاويل البديعة. وقد أنجزتها في دكان (فرانشسكو سالمبيني F. Salimbene). ولما عرضتها على أرباب الصنعة أعضاء نقابة الصاغة أبدوا أعجابهم بها وأعترفوا بأني أحسن فنان بين تلاميذ الصناعة. وكان ثمّ حفّار على الخشب يدعى (جيوڤانباتستا Giovonbatista) المعروف عادة بإسم (تاسّو Tasso)[٣٩] وهو في مثل سنيّ. أسَرَّ لي يوماً برغبته في التوجه معي الى روما إن خطر لي ذلك. كنا نتحدث في الأمر بعد تناولنا الغداء مباشرةً. وبما إني كنت أشعر بإستياء من أبي -والسبب هو الموسيقى بالطبع- فقد قلت لـ(توماسوّ):

- أفٌّ لك! إنّك رجل أقوال لا رجل أعمال.

أجاب:

- إسمع. أنا كذلك حانق على أميّ ولو كان عندي ما يكفيني من المال للوصول الى روما لفعلت دون أن أتوقف لحظة لإدارة المفتاح في قفل دكاني الحقير.

=من حياة بطرس الرسول. والكاتدرائية نفسها وتدعى اليوم (سانتا ماريا دل كارميني) كانت قد بُنيت في أواخر القرن الثالث عشر دمرتها النار في ١٧٧١ وأعيد بناؤها وسلم منها لحسن الحَظّ جناحا برانكاچي وكورسيني. وقد أضطلع ماساچيو بزخرفتها (١٤٢٤). وترك أجمل أثر لديه فيها.

(٣٨) فيليپو ليپي Filippo Lippi (١٤٥٧-١٥٥٤) رسام معروف. وإبن الرسام الأبعد منه شهرة فر افيليپو (١٤٠٦-= = ١٤٦٩). مازالت آثارهما تزين كنائس فلورنسا. أمّا صديق چلليني فقد عرف بإسم (جيوڤانباتستا) ونال شهرة كبيرة في فنه الذي عالجه.

(٣٩) إل تاسو (١٥٠٠-١٥٥٥) مهندس ونقّاش خشب. صممّ اللوجيا التي هي في السوق الجديدة. (أنظر ڤاساري - ميللافيزي- المرجع المفصّل في الفهرست).

فقلت: إن كان هذا العائق الوحيد الذي يقفك، فلديّ من المال مايكفي إثنين وإستأنفنا السير يحدث بعضنا بعضاً بهذا الشكل. وعلى حين غرّة وجدنا أنفسنا ونحن نواجه باب (سان پيترو گاتولیني[٤٠] San Pietro Gattolini). قبل أن ندرك أين نحن. وهنا قلت:

- تاسو! إنها إرادة الله. لم يكن أحد منّا قد لاحظ الى أين نتجه. والآن وأنا هنا أشعر وكأني قطعتُ نصف الطريق.

وتم القرار وإنطلقنا نغذّ السير ونحن لاننفكّ نتساءل:

- ماذا سيقول عَنّا أبوانا العجوزان في هذا المساء؟

وإتفقنا على أن لانفكرّ فيهما حتى نبلغ روما. وشددنا مئزرينا كلّ خلف ظهره وإنطلقنا نحو (سيينا) نكاد لاننطق بلفظةٍ واحدة طول الطريق. وبعد بلوغنا المدينة شكا (تاسوّ) آلاماً في قدميه وقال إنه لن يخطو خطوة أخرى. وصارحني برغبته في العودة من حيث أتى وطلب مني قرضاً فقلت:

- الباقي عندي لايكفي لإكمالي الرحلة. وكان عليك أن تفكر في الأمر مليّاً قبل أن تترك فلورنسا. فإذا كان السبب في عدولك آلام قدميك فسنجد لك حصان بريدٍ عائداً الى روما ونكتريه وبذلك يزول عذرك.

إكتريتُ حصاناً. ولما لم أجده ينطق بكلمة واحدة ألويتُ عنان جوادي شطر الباب الروماني فلَمّا تبين فيَّ العزم لحق بي ضالعاً، يبذل أقصى مجهود لجرّ نفسه جَرّاً وهو يلعن ويدمدم ساخطاً على مسافة مني. وعندما بلغت الباب أدركتني به الشفقة فتوقفت أنتظره حتى إذا وصلني أردفته خلفي وأنا أقول له معاتباً:

- لو علم أصدقاؤنا بأننا قررنا الوصول الى روما ثم خار عزمنا ولم يتبق منه ما يكفينا الى أبعد من (سيينا) فماذا سيقولون عنّا.

فأقرّ صديقي (تاسو) بصواب قولي وكان بطبيعته مرحاً فبدء يضحك ويغني ودخلنا روما وكان غناؤنا ودعاباتنا لاتنقطع طول الطريق. وكنت آنذاك في السادسة عشرة من عمري، أي بعمر القرن الذي نحن فيه.

ما أن حططت رحلي في روما حتى وجدت لي عملاً عند أستاذ في الصناعة يدعى (فيرانزولا Firanzuala) واسمه الأصلي (جيوڤاني) ومسقط رأس (فيرانزولا) من أعمال (لومبارديا)[٤١] وقد أصاب شهرة عظيمة لخبرته التامة بصنع الصحاف الكبيرة وما شاكل ذلك. فأطلعته على تصميم لمشبك صنعته في فلورنسا عند (سالمبيني) فأعجب به كثيراً والتفت إلى خَلفةٍ من صنّاعه المتتلمذين وهو فلورنسي يدعى (جيانوتوّ جيانوتيّ Gianotto Gianotti) كان قد سلخ عدة سنين في خدمته وقال له بلهجة تأنيب:

- دونك واحداً من الفلورنسيين العارفين. وأنت؟ ما أنت إلاّ واحداً من أغبيائهم الجهلة.

(٤٠) إتخذ الباب اسمه هذا من الكنيسة الشهيرة (ماريا دللاّ روتوندا) في روما وكانت قبلذاك البانثؤن الروماني.
٤١- بليدة تقع على بعد نحو ثلاثين كيلومتراً شمال فلورنسا.

في هذه اللحظة عرفت فيه صديقي جيانوتو فأسرعت الى التحدث اليه. كنا قبل نزوحه الى روما نعالج الرسم معاً. وقد عقدنا فيما بيننا أواصر الود، إلا أن وقع تأنيب أستاذه على نفسه كان من الشدّة بحيث حمله على إنكار أيّ معرفة سابقة بي. فآلمني ذلك وصحت به وقد بلغ إنفعالي أقصاه:

- ويحك يا جيانوتو. يا أصدق خِلٍّ من الأيام الخوالي. ألم نكن سويّة في موقع كذا ومحل كذا ألم نأكل ونشرب معاً. أو ألم أبتَ ليلةً في منزلكم الريفيّ؟ على إني لا أهتم. فسواء لديّ أتكلمت عني بالخير أمام هذا الرجل الكريم أستاذك أم لم تتكلم فإني اؤمل بأن تبرهن يداي هاتين على مقدرتي بما تنتجان من أعمال دون مساعدة منك.

كان (فيرانزولا) إنساناً صريحاً، عصبيّاً سريع الغضب الى آخر حدٍ. فما إن فرغتُ من قولي حتى التفت الى (جيانوتو) وصاح به مُنتهراً:

- قبّحك اللّه من لئيم حقير! أما تخجل من هذا التصرف إزاء من كان بالأمس صديقك الحميم؟

وبعين الشعور الذي ملكه التفتَ اليّ وأضاف قائلاً:

- أدخل الدكان وبرهن على ماقلتَ. دع يديك تشهدان بكفاءتك.

ثم دفع اليّ بتحفة فضيّة دقيقة للغاية تعود لأحد الكرادلة. هي عبارة عن علبةٍ صغيرة صُممت على شكل الناووس الرخامي الأحمر الذي يقوم أمام باب الروتوندا.[٤٢]

فإلى جانب ما إستنسخت أضفت إليه بعض التهاويل والأقنعة الصغيرة الجميلة من إختراعي. وبنتيجة هذا أخذ أستاذي يدور به على الصاغة متباهياً فخوراً بالشغل الدقيق الذي أنتجه دكانه. وكان يقارب نصف (كوبيت) حجماً والغرض هو أن يستخدم كمملحة، والى هذه المملحة يعود الفضل في أول كسبٍ لي في روما. وقد أرسلت جانباً من المال الى الوالد الكريم مساعدة منيّ واحتفظت لنفسي بالبقية. وعلى ضوء ماكسبته من مال إنطلقت في أرجاء روما أتدارس آثارها وأتملاّها مدققاً فاحصاً حتى أشرفت نقودي على النفاد فعدت الى الدكان أشتغل مجدداً. ولم تطل إقامة صديقي (باتستا دل تاسوّ) فقفل راجعاً الى فلورنسا.

عهُد اليّ بعمل جديد على أني قررت أن أشتغل لأستاذ آخر بعد فراغي منه وقد أغراني بذلك مواطن ميلانيّ يدعى الأستاذ (باگولو آرساگو Pagolo Arsago) وما حصل بعد ذلك أن (فيرانزولا) اشتبك في شجار عنيف مع (آرساگو) هذا وإنهال عليه شتماً. وكنت موجوداً آنذاك فإنحزت الى جانب أستاذي الجديد وصرت أدافع عنه وقلت لفيرانزولا محتجاً: إني ولدت حُراً وسأعيش حراً وإنه غير محق بالشكوى من تصرّف (آرساگو) ولا بالتظلم من عملي وإنه مازال مديناً لي ببضعة كراونات هي بقية أجري. وكصانع حرّ ليس ثمّ ما يمنعني من التوجه حيث شئت، وأنا مدرك تماماً بأن عملي هذا لايلحق إساءة أو ضرراً بأي إنسان. وحانت لأستاذي الجديد فرصة الكلام فتدخل قائلاً إنه لم يطلب منيّ الإلتحاق بخدمته. وسيكون مسروراً لو عدت الى (فيرانزولا) فأجبت إني لم أخطيء بحق (فيرانزولا) ولا علم لي بإيّ شيء من هذا القبيل مطلقاً. على إني أريد أن أبقى سيّد نفسي. ومن

٤٢- هي بيعة القديسة سانتا ماريا دللآروتوندا وكانت قبلذاك البانثيون الروماني.